

التحرير والتنوير

و (ما) في قوله (بما عصوا) مصدرية أي بعضيانهم وكونهم معتدين فعدل عن التعبير بالمصدرين إلى التعبير بالفعلين مع (ما) المصدرية ليفيد الفعلان معنى تجدد العصيان واستمرار الاعتداء منهم ولتفيد صيغة الماضي أن ذلك أمر قديم فيهم وصيغة المضارع أنه متكرر الحدوث . فالعصيان هو مخالفة أوامر الله تعالى . والاعتداء هو إضرار الأنبياء . وإنما عبر في جانب العصيان بالماضي لأنه تقرر فلم يقبل الزيادة وعبر في جانب الاعتداء بالمضارع لأنه مستمر فإنهم اعتدوا على محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والمنافقة ومحاولة الفتك والكيد .

وجملة (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) مستأنفة استئنفاً بيانياً جواباً لسؤال ينشأ عن قوله (ذلك بما عصوا) وهو أن يقال كيف تكون أمة كلها متمالئة على العصيان والاعتداء فقال (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) . وذلك أن شأن المناكر أن يبتدئها الواحد أو النفر القليل فإذا لم يجدوا من يغير عليهم تزايدوا فيها ففشت واتبع فيها الدهماء بعضهم بعضاً حتى تعم وينسى كونها مناكر فلا يهتدي الناس إلى الإقلاع عنها والتوبة منها فتصيبهم لعنة الله . وقد روى الترمذي وأبو داود من طرق عن عبد الله بن مسعود بألفاظ متقاربة قال : قال رسول الله ﷺ : A كان الرجل من بني إسرائيل يلقي الرجل إذا رآه على الذنب فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وخليطه وشريكه فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنه على لسان داود وعيسى بن مريم ثم قرأ (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل) إلى قوله (فاسقون) ثم قال " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كما لعنهم " .

ناهى وأن الأمة مجموع باعتبار بعضها بعضهم نهى على المفاعلة بصيغة التناهي وأطلق A E فاعل المنكر منهم هو بصد أن ينهاه المنهي عندما يرتكب هو منكراً فيحصل بذلك التناهي فالمفاعلة مقدرة وليست حقيقية والقرينة عموم الضمير في قوله (فعلوه) فإن المنكر إنما يفعله بعضهم ويسكت عليه البعض الآخر ؛ وربما فعل البعض الآخر منكراً آخر وسكت عليه البعض الذي كان فعل منكراً قبله وهكذا فهم يصانعون أنفسهم .

والمراد (بما يفعلون) تركهم التناهي .

وأطلق على ترك التناهي لفظ الفعل في قوله (لبئس ما كانوا يفعلون) مع أنه ترك لأن السكوت على المنكر لا يخلو من إظهار الرضا به والمشاركة فيه .

وفي هذا دليل للقائلين من أئمة الكلام من الأشاعرة بأنه لا تكليف إلا بفعل وأن المكلف به في النهي فعل وهو الانتهاء أي الكف والكف فعل وقد سمي الكف التارك هنا فعلا . وقد أكد فعل الذم بإدخال لام القسم عليه للإقضاء في ذمه .

(ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون [80] ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون [81])